﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: 77 - 82]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من بيانِ ذِكْرِ إنجاءِ نوحٍ عليه السلام إلى ذِكْرِ النّتيجةِ

لمّا ذَكَرَ في الآياتِ السّابقةِ نِعمةَ إنجائِهِ عليه السلام وإنْجاءِ أهلِهِ، ونعمَةَ إلحاقِ الكَرْبِ العَظيمِ بالظّالمين؛ استَتمّ - هنا - في هذه الآياتِ سائرَ المناقبِ المُتسلسِلَةِ؛ وهي إبقاءُ ذُرّيّتِهِ مُعَمِّرةً للأرضِ إلى يومِ يُبعثون، وإبقاءُ ذِكْرِه حَسَنًا في كلّ مَن جاءَ بعدَه إلى يومِ الدّين، مشفوعًا ذلك كلُّه بالسّلامِ الخالدِ عليهِ من اللّهِ في العالَمين إلى خِتامِ قصَّتِهِ عليه السلام[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾: أصلُ (بقي): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوَامُ، قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقَى بَقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ[2]، واسْتَبْقَيتُ مِنَ الشَّيْءِ، أَي: تَرَكْتُ بَعْضَهُ، والبَقِيَّة أَيضًا: مَا بَقِيَ مِنَ الشَّيْءِ[3]، والمقصود بـ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ هنا: ولد نوح[4].

2) ﴿وَتَرَكْنَا﴾: (ترك) أَصْلُ التَّرك: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: تَرَكْتُ الشَّيءَ: إذا كَفَفْتُ وأَعرَضْتُ عنه، ويَأْتي بمعنَى التَّخلِّي عن الشيءِ[5]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أي: أَسقَطَهُ، وهو أيضًا:

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 247، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(4) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 610.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ترك).

الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا، أي: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[1]، ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْضُ. والمقصودُ بـ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ هنا: ألقينا على نوح بعد موته ثناء حسناء، يقال له من بعده في الآخرين خير[2].

3) ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾: جمع آخَرُ: الذي يُقابَلُ به الواحد، وأمّا آخِرُ فيُقابَلُ به الأوَّل، وكلاهما من أصل (أخر) الدالّ على تخلّف الشيء عن قرينه. فالآخَرُ: أَحَدُ الشَّيئَيْن، وهو اسْمٌ على أَفْعَل من التأخّر، والأُنْثَى أُخْرَى، وهو بمعنى (غير)، كقولك: رجلٌ آخَر، وثوبٌ آخَر[3]. ومعنى ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ هنا: مَن جاء بعد نوح عليه السلام.

4) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ به الشَّيءُ. ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهرِ الأرضِ مِن جميعِ الخَلْقِ، والجَمع: العَوالِم، والعالَمون: أصنافُ الخَلْقِ، سُمِّي بذلك؛ لاجتماعِهم، وقيل: العالَم هو ما احتَواهُ الفَلَك، وقيل: هو مُختَصٌّ بِمَن يَعقِل مِنَ الإنسِ، والجنِّ، والمَلائِكةِ، والشَّياطِين[4]، "وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ، وقال قَومٌ: العالَمُ سُمِّيَ لاجتماعِهِ، فـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: هم الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمِثلِهِمْ في العالَمِينا"[5]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ أنَّه بعد إنجاءِ نوحٍ عليه السلام والمؤمنين من الكَرْبِ العظيم؛ استبقى اللّهُ سبحانَه ذريّةَ نوحٍ لعمارةِ الأرضِ؛ فلم يُعقِب أحدٌ ممَّن كان في السَّفينةِ عقبًا باقيًا سوى أبناءِ نوحٍ الثَّلاثة: سام

أصلُ البَشريّةِ المحفوظُ مبارَكٌ بأمرِ اللهِ تعالى، وما دونَهُ فغريقٌ وإنْ طالَ زمانُهُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ترك).
(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 610.
(3) الرَّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (أخر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

وحام ويافث، فسام أبو العربِ وفارس والرّوم، وحام أبو السّودانِ من المَشرقِ إلى المَغربِ، ويافث أبو التُّركِ، وهذا هو المشهورُ على ألسنةِ المُؤرِّخين، وليس في القرآنِ ولا في السُّنّةِ نصٌّ قاطعٌ على شيءٍ من هذا، كما أنّه ليس في القرآنِ ما يُشير إلى عمومِ دعوتِهِ لأهلِ الأرضِ قاطبةً، ولا أنّ الغرَقَ عمّ الأرضَ جميعًا، وأنّ ما تُفيدُه الآيةُ من جعلِ ذُريَّتِهِ هم الباقين، إنّما هو بالنّسبةِ لذريّةِ مَنْ معه في السَّفينةِ، وذلك لا يستلزمُ عدمَ بقاءِ ذُريَّةِ مَنْ لم يكُنْ مَعَهُ، وقد كان في بعضِ الأقطارِ الشّاسعةِ مَنْ لم تبلُغْهُم الدّعوةُ، فلَمْ يستوجبوا الغَرَقَ؛ كأهلِ الصّينِ وغيرِهم من البلادِ النّائيةِ. ثمّ تستوفي الآياتُ سائرَ مناقِبِهِ عليه السلام، فتُخبِرُنا عن أفضالِ اللّهِ سبحانه على نوحٍ؛ فيقولُ اللّهُ سبحانَه: أبقينا عليهِ في الأُمَمِ التي ستأتي من بعدِهِ إلى يومِ القيامةِ الذّكرَ الحسَنَ، والكلمةَ الطيّبةَ، ألا وهي قولُهُم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أيْ: (تحيّةٌ وأمانٌ وثناءٌ جميلٌ على نوحٍ في العالمين)، فأمانٌ وسلامةٌ له من أن يُذْكَر بسوءٍ في الآخرين؛ بل تُثنى عليه الأجيالُ من بعدِهِ. ومثلَ ذلك الجزاءِ لِنوحٍ نَجزي كلَّ مَن أحسنَ من العبادِ في طاعةِ اللّهِ. ثم علّل كونَهُ مُحسِنًا بأنّه كان من عبادِنا المُصدِّقين المُخلَصين العاملين بأوامرِ اللّهِ. ثمّ خُتِمَتْ قصَّتُهُ عليه السلام بختامِ النِّعمِ عليه وعلى المؤمنين بأنَّ اللّهَ أغرقَ أعداءَه الذين آذَوه وأعرضوا عن دَعْوَتِهِ. وتلك سُنّةُ اللّهِ لا تتخلَّف؛ أنّه يُنْجي المؤمنين ويُهلِكُ الكافرين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

في الإنجاءِ إبقاءٌ، وفي الإبقاءِ إرخاءٌ لأسبابِ الحياةِ

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ معطوفةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 340، والمَراغيّ، تفسير القرآن: 23/ 67، وطَنطاويّ، الوَسِيط: 12/ 93، ونخبةٌ من العلماءِ، التَّفسيرُ المُيسّر.

على جملة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [الصافات: 76]؛ أيْ: (جَمَعْنا لَهُ النّجاةَ بأهلِه، والبقاءَ لذُرّيَّتِه)، ويصِحُّ أن تكونَ الواوُ استئنافًا نحويًّا إذا جعلْنا هذه الجملةَ شُروعًا في معنًى جديدٍ، والحَمْلُ على العطفِ هو الأوْلَى بالمقامِ؛ للسَّردِ التَّسلسُليِّ المَلْحوظِ فيه التَّرتيبُ الزَّمانيُّ.

معنى الجَعْلِ ودِقّةُ الاستعمالِ:

تصييرُ الذُّرّيّةِ من الهلاكِ إلى البقاءِ امتنانٌ واعتبارٌ

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ بمعنى الحُكمِ والقَضاءِ على الشَّيءِ بالشَّيءِ[1]؛ أيْ: حَكَمْنا على ذرّيّته بالبقاءِ بامتدادِ النّسلِ واستمرارِه قضاءً منه سبحانه بذلك، ويصِحّ أن يكونَ الجَعْلُ هنا تصييرًا من النَّجاةِ على معنى: صَيَّرْناهم باقينَ بسببِ إنجائِنا لهم، فانتَقَلوا بالإنجاءِ إلى البقاءِ، وهو الأوْلَى بالسّياقِ، والأدقُّ في معنى الجَعْلِ، كما أنَّ التَّصييرَ المُسنَدَ إلى اللّهِ تعالى (جَعلْنا) يتضمَّنُ الحُكْمَ عليهم بأنَّهم الباقون، وهو الأنسبُ بسياقِ الامتنانِ؛ إذ يُلحَظُ فيه الانتقالُ من هاويةِ الهلاكِ إلى بَرِّ النَّجاةِ؛ بلِ البقاءُ بعدَ ذلك استمرارًا وتناسُلًا، وهذا كلُّه تَصييرٌ.

دلالةُ إضافةِ الذُّرّيَّةِ إلى الضَّميرِ:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّعقيبَ انحصَرَ في أولادِ نوحٍ عليه السلام

أُضيفَ لفظُ الذُّرّيَّةِ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ للتَّقييدِ والتَّعريفِ؛ أيْ: تَقييدِ البقاءِ بذُرّيَّتِه من صُلبِه؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّه ماتَ كلُّ مَنْ كان معه في السَّفينةِ غيرَ بنيهِ وأزواجِهم، وهي إشارةٌ مُحتمَلَةٌ غيرُ قاطعةٍ، وفي الإضافةِ تخصيصُ الباقين من النّاجين[2].

فائدةُ ذِكْرِ ضميرِ الفَصْلِ:

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ ذِكْرَ ضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ على حذفِه؛ فلم

(1) السَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ: (جعل).
(2) البَيضاويّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 5/ 13.

يَقُلْ: (وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ الباقينَ)، وفائدتُهُ توكيدُ النِّسبَةِ في الإسنادِ، والحَصْرُ، والفَصْلُ بين الخَبَرِ والصِّفَةِ، فلفظُ ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ خبرٌ في المعنى، وفي أصلِ التَّركيبِ الَّذي هو: (ذُرِّيَّتُهُ هُمُ الباقونَ)، لا في إعرابِ نَظْمِ الآيةِ؛ لكونِهِ مفعولَ الجَعْلِ لفظًا، لكنّه خبرٌ عن الذُّرِّيَّةِ في المعنى. وضميرُ الفَصْلِ لا مَحَلَّ له من الإعرابِ، ومعنى الحَصْرِ الذي أفاده ضميرُ الفَصْلِ هو انحصارُ البَشَرِيَّةِ في ذُرِيَّةِ نوحٍ ﷺ؛ لذا كان ﷺ هو الأبَ الثّانيَ للبشريَّةِ، فكأنّه قيل: وجعَلْنا ذُرِّيَّتَه هم الباقينَ لا ذُرِّيَّةَ مَنْ معه في السَّفينةِ، ولا ذرِّيَّةَ أحدٍ غيرِه من المُغرَقين[1]، وهذا على المشهورِ من كلامِ المُفسِّرين، وسيأتي تفصيلُ ذلكَ في الفائدةِ اللّاحِقَةِ.

نـوحٌ ﷺ هو الأبُ الثّاني للبشريَّةِ حَصْرًا

نوعُ الحَصْرِ ودلالتُهُ:

الحَصْرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إمّا أن يكونَ حقيقيًّا على ظاهرِهِ؛ والمَعنى أنّ البشريَّةَ انحصرتْ في ذَراري نوحٍ ﷺ فأفادَ الاستغراقَ الحقيقيَّ؛ أيْ: كلّ فردٍ بعد نوحٍ هو من نسلِ نوحٍ، وإمّا أن يكونَ الاستغراقُ عُرفيًّا، والقَصْرُ إضافيًّا، فإنّ جَعْلَ ذرّيَّته هم الباقين دونَ ذُرّيَّة مَنْ كانوا معه في السَّفينةِ، ودونَ ذُرّيَّة المُغرَقين، لا ينفي بقاءَ ذرّيَّةِ مَنْ لم يكنْ معه، وكانوا في بعضِ الأقطارِ الشّاسعةِ الَّتي لم تصلْ إليها الدَّعوةُ ولم يستوجِبْ أهلُها الغَرَقَ؛ فالمقصودُ من القَصْرِ حينئذٍ: قَصْرُ البقاءِ على ذُرّيَّةِ نوحٍ بالنّسبةِ لغيرِ مَخصوصٍ، لا لكلِّ النّاسِ؛ بل بالإضافةِ إلى المُغرَقين فقط ومَنْ كانوا معه في السَّفينةِ، وأمّا غيرُ أولئك ممّن لم تبلُغْهُم دعوةُ نوحٍ، ولم يشملْهُمُ الغَرَقُ، ولم يكونوا من أهلِ السَّفينةِ فغيرُ داخلينَ في القَصْرِ[2].

تنوُّعُ الاحتمالِ يُبقي بابَ التّاريخ مفتوحًا للأفهامِ

(1) الآلوسيّ، روحُ المعاني: 12/ 96، وابنُ عُثَيْمين، تفسيرُ سورةِ الصَّافّاتِ، ص: 179.

(2) ابنُ عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 477، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 12/ 95، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 132.

معنى تَعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾:

كَمُلَ البَقاءُ في ذُرّيّةِ نوحٍ عليه السلام

(ال) الدّاخِلَةُ على الوَصْفِ المُشْتَقِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ موصولةٌ على تقديرِ: (الَّذين بَقوا)، وعليه فـ(ال) مفعول به لفعل (جعلْنا)، ونُقِل إعرابُها إلى ما بعدَها لِتَعذُّرِ ظهورِهِ عليها، أو إعرابُها منقولٌ رأسًا إلى اسمِ الفاعلِ؛ لِتَعَذُّرِ حصولِهِ في (ال) فضلًا عن ظهورِهِ؛ فمفعولُ الجَعْلِ: ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾[1]. و(ال) هذه تدلُّ على الكمالِ، وقرينةُ الكَمالِ الحَصْرُ بضَميرِ الفَصْلِ، ومعنى الكَمالِ هنا: تحقُّقُ البقاءِ باستمرارِ النّسلِ وعدَمِ انقطاعِهِ، كأنّه قيلَ: هم الباقون وحْدَهم في أنسالِ البَشَريَّةِ وسلاسلِ أنسابِها. ومعنى الموصوليَّةِ في (ال) حقيقةٌ، ومعنى الكمالِ فيها مَجازٌ[2]. ولم يَقُلْ: (الَّذينَ بَقوا) مراعاةً للفاصِلَةِ ألّا تَنْخَرِمَ، ولاتّساعِ اسمِ الفاعلِ في دلالتِهِ على الذَّواتِ والزَّمنِ المُستَمِرِّ الدّالِّ على تجدُّدِ التَّناسُلِ وتَكرارِهِ وعدمِ انقطاعِهِ في الأُمَمِ والأجيالِ.

بَلاغَةُ الكِنايةِ في استِعمالِ مُفرَدَةِ البقاءِ:

الفَناءُ حاصلٌ بموتِ الأُصولِ وعُقْمِ الفُروعِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَةِ البقاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾؛ لأنّه كنايةٌ عن لازمِهِ، وهو استمرارُ أسبابِ البقاءِ، وهو التّناسلُ والتّكاثُرُ والتَّوالُدُ، فلا يَفنى الجِنْسُ، ولا تنقطعُ سِلسلةُ النَّسَبِ؛ لأنَّ الفَناءَ حاصلٌ بأحدِ أمرَيْنِ: هلاكِ الأُصولِ بالموتِ، وانعدامِ الفروعِ بعدمِ النَّسلِ. والمقصودُ هنا بالبقاءِ: ثباتُ حالةِ التّناسُلِ الَّذي يستمرّ بها النّوعُ البشريُّ في الوجودِ، وهذا يستلزمُ حياةَ الأصلِ؛ لكونِ إلقاءِ البذورِ منوطًا به؛ فكانَ البقاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ معناه: هو الحيواتُ المُستمرَّةُ بالتَّوالُدِ من أصولِها المُنتِجَةِ، فخرجَ بذلكَ المُغرِقون؛ لفنائِهِم بالغَرَقِ،

(1) ابن عُثَيْمين، شرح ألفيّة ابن مالك: 13/ 13.
(2) التّميميّ، (ال) التَّعريفِ الدّالّةُ على الكمالِ، ص: 23.

والنّاجون معه في السَّفينةِ؛ لفنائِهم بانقطاعِ نسلِهم، وللتّعريضِ بالمقابلِ الفاني وهو مُقابلُه ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾.

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ:

إطـلاقُ البـقاءِ أعـمُّ مـن ذِكـرِ التَّناسُلِ

استعمالُ مُفرَدَةِ البقاءِ في حياةِ الأصلِ حقيقةٌ، وفي استمرارِ التَّناسلِ في الفروعِ مجازٌ؛ لأنّ استمرارَ التّناسلِ هو سببُ البقاءِ، لا نفْسَ البقاءِ؛ فذِكْرُ المُسبَّبِ وإرادةُ السَّبَبَ من بابِ المَجازِ المُرْسَلِ الذي علاقتُهُ المُسبّبيّةُ، واستعمالُ اللّفظِ في هذيْن المَعنيَيْن عمومٌ في المَجازِ أو جمْعٌ بين الحقيقةِ والمَجازِ، وإطلاقُ المُسبَّبِ وهو البقاءُ أعمُّ من ذِكرِ السَّببِ وهو التَّناسلُ، وذلك أنّه ذَكَرَ الدَّعوى مع دليلِها؛ فالبقاءُ هو دليلُ التَّناسلِ وهو من لوازِمِه، وهو لا يتعارضُ مع توجيهِ الكنايةِ السّابقِ.

نُكتَةُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ الفاعِلِ:

حُذِف مُتعلّقِ الوصفِ ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ في الفاصلةِ، فلَم يقُلْ: الباقين في أيِّ وقتٍ أو بأيِّ حالٍ لوضوحِ ذلك؛ أيْ: جعلنا ذرّيّةَ نوحٍ هم الباقين بعدَه، فمِنْ نسْلِه استمرَّ وجودُ الإنسانِ[1].

دلالةُ العَطفِ في الجُملةِ:

المَنْقَبَةُ الواحدةُ قيَمٌ مُركّبةٌ

جملةُ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها من النِّعَمِ الَّتي اختصَّ اللّهُ بها نوحًا عليه السلام، وتلك هي النِّعمة الخامسةُ، وهذه النِّعَمُ موصولةٌ بالعاطِفِ؛ ليدلَّ على اجتماعِها له نظْمًا، كما اجتمعتْ له واقعًا[2].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التَّرْكِ:

إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا تَرَكَ عليه خيرًا

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَةِ التَّرْكِ دون رديفاتِها، فلم يأتِ بمُفرَدةِ الإبقاءِ مثلًا؛ لأنَّها توهِمُ الذّاتَ، فلم يَقُلْ: (وأبقيْنا عليهِ في

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (بقي)، والماورديّ، النُّكَتُ والعيون: 5/ 53.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 132.

الآخرين)؛ كما يُقالُ: أبقيتُ على فلانٍ في زُمرَةِ الجالسين، إذا كان قد ألحقَه بهم بذاتِهِ وشخصِهِ، وأمّا (تركنا) فلا يُتوهّم معه إرادةُ الذّاتِ؛ بل يُرادُ معهُ الصِّفاتُ فقط؛ لأنّه لا يُقال: (تركْنا على فلانٍ في الآخرين)، إلّا على قصدِ الصِّفاتِ لا الذّات؛ أيْ: تركنا عليه الذِّكرى الحَسَنَةَ، وذلك متأكِّدٌ بقرينةِ التّعدّي بحرفِ الاستعلاءِ، فالتَّعدّي بحرفِ الاستعلاءِ يمتنعُ معهُ إرادةُ العيْنِ والشَّخصِ؛ لأنَّ إرادةَ العيْنِ مع التَّركِ يُقالُ فيها: (تركْناه)، ولا يُقال: (تركنا عليه).

بلاغةُ المَجازِ في مُفرَدَةِ التَّركِ:

احتمالُ اللَّفظِ المَجازَ المُرسَلَ والاستعارةَ

يُحتَمَلُ أن يكونَ لفظُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ مجازًا مُرسَلًا في الدَّوامِ؛ أيْ: أدَمْنا له المناقبَ وأثْبَتْناها، فلمّا كان التَّركُ المذكورُ سببًا في ذلك؛ أطلقَ السَّببَ وأرادَ المُسبَّبَ وهو الدّوامُ والاستقرارُ. أو أنّ التَّركَ استعارةٌ في عدمِ الفناءِ والزَّوالِ، فشبَّه تلك المناقبَ والثَّناءاتِ من النِّعَمِ في ثُبوتِها لنوحٍ وعدمِ تحوُّلِها عنه، بالآثارِ الدّائمةِ الَّتي لا تَبْلَى ولا تَبيدُ بتقادُمِ الزَّمنِ عليها، وفي تلك الاستعارةِ المَكنيَّةِ إلماحٌ إلى أنّ هذا الإنعامَ على نوحٍ عليه السلام ليس من متاعِ الدُّنيا الزّائلِ ولا أعراضِها الفانية[1].

بلاغةُ الكِنايةِ في استعمالِ مُفرَدَةِ التَّركِ:

لُزومُ الذِّكرِ الحَسَنِ في الآخِرين من إكرامِ ربِّ العالمين

ذُكِرَتْ مُفرَدَةُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لإفادةِ انحصارِ المتروكِ له في بابِ الخيرِ والثَّناءِ، فلم يُتْرَك له إلّا مناقبُ الجلالِ في النّاسِ، واصطفاءُ التَّرْكِ يُشعِر بذلك؛ بحيث صارَ الثَّناءُ والبهاءُ تَرِكَةً له فيمن بعدَهُ إلى يومٍ يُبعثون، فإنَّ التَّركَ يومئ إلى إلقاءِ الخالدِ، فهو متروكٌ مُرسَلٌ دلالةً على عدمِ انفكاكِ ذلك عنه أبدًا، فذلك شيءٌ متروكٌ خُلِّيَ له من بين سائرِ الأشياءِ، فلا يَسقُطُ عنه أبدًا، وفي المُحصَّلِ فالمُفرَدَة كنايةٌ عن بقاءِ الخيرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.

عليه في الآخرين، وأنّه من لوازمِ ذِكْرِهِ استحقاقًا وثناءً، كما أنّ فيه تعريضًا بقومِهِ الذين فَنَوا واندثروا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

المِنَحُ العُلويَّةُ تستعلي وتتمكَّن وتثبتُ وتدومُ

استُعمِل حرفُ الاستعلاءِ لإفادةِ تمكُّنِ ذلك منه تمكُّنَ الحقِّ من المُستحِقّ، ولتصويرِ أنّ تَركَتَه (المتروكَ له) في بابِ الفَضْلِ والاجتباءِ هو مِنْحةٌ عُلويَّةٌ، والمِنَحُ العُلويَّةُ تستعلي وتتمكَّنُ وتثبتُ وتدومُ، فلا أحدَ يدفعها، ولا عارضَ يمنعُها.

بلاغةُ التّضمينِ ونُكتَتُهُ:

حروفُ المعاني قرائنُ مُحقِّقةٌ للمعاني

تَعدَّى فِعْلُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ دونَ اللّامِ، مع أنّ ظاهرَ التَّعديةِ أن يكون باللّام؛ وذلك لتضمينِ هذا الفعلِ معنى (أنعَمْنا)، وحقُّ (أنعَمْنا) أن يتعدَّى بحرف (على)، فلمّا ضُمِّن معنى (أنعمْنا) أفادَ بمادَّتِهِ معنى الإبقاءِ له؛ أيْ (إعطاءِ شيءٍ من الفضائلِ المُدَّخَرَةِ الَّتي يُشبهُ إعطاؤها تركَ أحدٍ متاعًا نفيسًا لِمَنْ يُخلّيه هو له ويُخلفه فيه، كالتَّركاتِ والوصايا)، وأفادَ بتعليقِ حرفِ (على) به أنَّ هذا التّركَ من قبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ، وكذلك شأنُ التَّضمينِ أن يُفيدَ المُضمَّنُ مَفادَ كلمتيْن فهو من ألطفِ الإيجازِ[1].

نكتةُ حذفِ معمولِ فعلِ التَّرْكِ:

فضلُ اللهِ أوسعُ من أن يُحاطَ به

حُذِفَ مَعمولُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (تركنا عليه ثناءً حسَنًا في الآخرين)؛ لإعظامِ الظَّنِّ في حُسْنِ فِعلِ اللّهِ به، فذِكْرُ المعمولِ تقييدٌ، وفضلُ اللّهِ عليهِ أوسعُ من ذلك ومن كلِّ ظنٍّ، وقد أفاضَ اللِّحاقُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإشارةِ إلى المفعولِ المحذوفِ، ليكونَ اللَّفظُ دالًّا على سَعَةِ المعاني التي يحتملُها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 133.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

المُقدِّماتُ تجتلِبُ ما يوافِقُها من النّهاياتِ

تعليقُ التَّركِ في قولِهِ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بلفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دونَ غيرِهم؛ لأنّه إنعامٌ باقٍ ودائمٌ كالتّرِكَةِ التي تُنالُ في الآخِر، وللإشارةِ بذلك إلى صلاحِ العاقبةِ؛ فإنَّ حُسْنَ العاقبةِ هو المقصودُ بعد كلِّ سعيٍ، وبعد كلِّ رِحلَةٍ وأمَد، ولإنّ النّهايةَ الحميدةَ دليلٌ على صلاحِ البدايةِ وليس العكس، ففي التَّقييدِ بـ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ تنبيهٌ على أنّ العِبرَةَ بالخواتيم، وكنايةٌ عن صلاحِ المُقدِّماتِ.

عِلَّةُ الابتداءِ بالنَّكِرَةِ:

على اعتبارِ جملةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ ابتدائيّةً؛ فقد ساغَ الابتداءُ بالنَّكِرةِ لكونِها جملةً دُعائيّةً، فهي خبريَّةٌ لفظًا إنشائيّةٌ في المعنى؛ لإفادتِها الدّعاءَ بالخيرِ والسّلامِ.

نكتةُ رفعِ لفظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

الإيماءُ إلى دوامِ السَّلامِ وثُبوتِهِ

على القولِ بأنَّ لفظَ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مفعولٌ به في المعنى لفعْلِ (تَركْنا)، والمعنى: (يُسلِّمونَ - أي: الآخِرينَ مِن الأُمَمِ - على نوحٍ سلامًا)، فلفظُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ منصوبٌ محَلًّا مرفوعٌ لفظًا، فحَذفَ الفعلَ (يُسلّمونَ)، وعَدَلَ عن النّصبِ إلى الرّفع؛ ليدلّ على ثبوت السّلام ودوامِه[1].

دَلالةُ حَرفِ الاستِعلاءِ:

السّماء هي قِبلةُ الـدّعـاءِ وهـي مَصدَرُ الرّحَماتِ

استُعمل حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾، للدّلالةِ على أنّهُ دُعاءٌ، والدّعاء يُستَنْزَل به مِنْ عَلٍ، فلا دعاءَ إلّا وجِهةُ العُلوِّ قِبلَتُه؛ لأنّ العطايا رحماتٌ ومواهبُ عُلويّة، لا تحصلُ إلّا بقدرة العليّ المُهيمِن. وفي حرف الاستعلاء إشارةٌ بديعة إلى أنّ السّلامَ قد تمّ له من جِهةِ العُلوِّ وحَصَل، وإنْ لم يُسلِّم عليه أحدٌ من أهلِ الأرضِ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 276.

فلا ضيْرَ عليه إذًا؛ فالسّلام واردٌ عليه من الملأ الأعلى مَبثوثًا في العالَمين، فهو قدِ استَقَرّ فيهم وإنْ لم يَحصُل منهم، وهذهِ دَلالةُ حَرفِ الظرفيّةِ بعدَ حَرفِ الاستِعلاءِ في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

عِلّةُ فَصْلِ الجُمْلةِ عمّا قَبلَها:

الاستئنافُ البيانيُّ حوارٌ دافئٌ مُستَتِرٌ

يصِحّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّر: (لِمَ اختُصّ نوحٌ بتلك العطايا؟ أو لِمَ استحَقّها؟) فأُجيبَ بالجملة، ولذا كانتِ الجملةُ التّعليليّةُ صالحةً لموقعِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لكونه جوابًا بالعِلّةِ أيضًا[1].

بَلاغةُ التّذْييلِ في الآيةِ:

الإحسانُ للمُحسِنِ إقناعٌ للعَقْلِ وإرخاءٌ للطُّمأنينةِ

جاءتْ جُملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَذييلًا لِما قبلَها من ذِكْرِ مَناقِبِ نوحٍ عليه السلام، والجملةُ تعليلٌ لتلكَ المَناقِبِ، وقد جاءتْ مُؤكَّدةً بأداةِ (إنّ) في صَدْرِ الجُملةِ معَ التّعليلِ، فنابتْ مَنابَ حَرْفِ التّعليلِ، كأنّه قيلَ: (وهَبْناهُ تلكَ المَناقِبَ؛ لإنّه كان مُحسِنًا؛ أيْ: مُتخلِّقًا بالإحسانِ وهو أعلى دَرَجاتِ الإيمانِ في الإخلاصِ والإتقانِ)[2]، وهو ما يتَّسِقُ معَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّ التّعليلَ في حقيقتِهِ بيانٌ للمَسْؤولِ عنه.

دلالةُ تَصْديرِ الجُملةِ بالتّوكيدِ:

لا تبديلَ لسُنّةِ اللهِ ولا إخلافَ لوَعدِهِ

سيقَت جُملةُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مُؤكَّدةً، ومُستَهَلّةً بنونِ الجَلالةِ المُعظِّمةِ: (نا) للدَّلالة على أنَّ مضمونَ تلك الجملةِ - وهو جزاءُ المُحسِنينَ بالجزاءِ الكاملِ - هو عادَةٌ رَبّانيّة، ولازِمَةٌ لا تَتَخلّف ولا تَفوتُ، ولذا أكّدَها ونسَبَها إلى نفسِهِ سبحانَهُ؛ لتَجريَ مَجرَى الوَعْدِ المُحَتَّمِ والسُّنّةِ الثّابتة، واللّهُ لا يُخلِف الميعادَ.

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على البيضاويِّ بهامش القونويِّ: 16/ 278.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 134.

بَلاغَةُ الاخْتِزالِ في تَرْكيبِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

اجتماعُ التَّشبيهِ والإشـارةِ والـخِـطـابِ والإيماءِ للبُعدِ في لفظٍ واحدٍ

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تركيبٌ من ثلاثِ كلماتٍ[1]: كافُ التَّشبيهِ بمعنى (مِثْل)، و(ذا) للإشارةِ، واللّامُ للبُعد، والكافُ خِطابٌ لكلِّ سامعٍ، وزيادةُ لام البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ الجزاءِ وبُعدِ مَنزلَتِهِ في الفَضْلِ والشَّرَفِ[2].

ومعنى التَّرْكيبِ في السّياقِ: (إنّا نجزي المُحسنينَ جَزاءً مِثْلَ ذلك الجَزاءِ الأوفَى الَّذي استحقَّهُ نوحٌ)، فالكافُ الَّتي بمَعْنى (مِثل) نعتٌ لمَصْدرٍ محذوفٍ؛ أيْ: (جزاءً مثلَ ذلك الجزاءِ) أو (إنّا نجزي المُحسنينَ جَزاءً حالَ كونِهِ مِثلَ ذلكَ الجزاءِ الحاصِلِ لنوحٍ عليه السلام). فالكافُ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ حالٍ مِن ضَميرِ المَصْدَرِ المُقدَّرِ[3].

معنى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الجَزاءُ الكاملُ حقيقٌ بالكُمَّلِ مِنَ المؤمنينَ

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لاستغراقِ الجنسِ؛ أيْ: (نَجزي كلَّ مَنْ بالإحسانِ اتّصفَ)، و(ال) هنا دخلتْ على الوصفِ المُشتَقِّ (اسم الفاعل - مُحسِن)، فتُفيدُ المَوصوليّة، على معنى: (الَّذين أحسَنوا)، وتُفيدُ الكمالَ في الصّفةِ؛ أيْ: (الكاملي الإحسانِ)، ومعنى الكَمالِ: استيفاءُ خَصائصِ جِنْسِ الإحسانِ، وهو التَّحقُّقُ بالإخلاصِ واليَقينِ[4].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

الإيمانُ عِلّةُ الإحسانِ، والجَزاءُ ثَمرَتُهُما

جاءتْ جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَفْصولةً عن قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا قد سألَ لماذا الجَزاءُ الأكمَلُ للمُحسنينَ؛ فجاءَ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لبيانِ شرطِ الإحسانِ المَقبولِ، المَتبوعِ بالجزاءِ

(1) السّامرَّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 90، 106، والإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل: 1/ 344.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196.
(3) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 144.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196.

الأحسَنِ؛ أيْ: (جازَيناهُ على إحسانِهِ بتلكَ المَواهِبِ والكراماتِ والمَناقِبِ السّابقة، وقد استَحقَّ الجزاءَ على الإحسانِ؛ لأنّه كانَ مِن عبادِنا المُؤمِنينَ)؛ فهي شاملةٌ للتَّعليلِ، وهذا التَّعليلُ بالإيمانِ نَلحَظُ أنّه بيانٌ لكيفيّةِ ذلك الإحْسانِ، وتخصيصٌ له بأنَّه الإحسانُ الشَّرْعيُّ الدّينيُّ؛ وهو إحسانُ الإيمانِ والإذعانِ للواحِدِ الدَّيّانِ. ولذلكَ لَم يقُلْ في السّياقِ الكَريمِ: (إنّه كان مِن عبادِنا المُحسِنينَ) ويكونُ في ذلك غُنْيَةٌ عن قولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وغُنْيَةٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لا ليُفيدَ بقولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلحاقَ المُقْتَدينَ بهَديِه في الجزاءِ، وأنّه ليس هذهِ المَناقِبُ مُتيسِّرةً لكلِّ مَن انتَهجَ سبيلَ الإحسان.

نَوْعُ ﴿مِنْ﴾ ودَلالتُها:

الإيمانُ وصفٌ جامعٌ لجميعِ المؤمنينَ وشامِلٌ لكُلِّ المُحسِنينَ

إنْ سألَ سائلٌ: وما نوعُ الإحسانِ الَّذي يُرجَى في ذلكَ وكانَ عليهِ نوحٌ واستحَقَّ بِه الجَزاءَ؟ فأُجيبَ: بأنّه إحسانُ عبوديّةِ الإيمانِ، فقد كان ضِمنَ العِبادِ المُؤمنينَ، ولذلكَ لَم يَقُل: (إنّهُ كان مُؤمِنًا)، أو (إنّهُ كانَ عبدًا مُؤمِنًا)؛ ليستَطرِدَ النَّظْمُ على عُموميّةِ الجَزاءِ الَّذي لا يختص بنوح وحدَه؛ بل ينالُه كلُّ مَن قامَ بشَرطِهِ فقال: ﴿عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال: ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (مُحسِنًا)، كأنّهُ قيلَ: كلُّ عَبْدٍ مُحسِنٍ مُؤمِنٍ هو مِنْ نوحٍ ونوحٌ منه؛ فجَمْعُ العبادِ وجَعْلُ نوحٍ مُنتظِمًا في فريقِ العبادِ المُؤمنينَ، بدَلالةِ ﴿مِنْ﴾ الدّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ هو تَشْريفٌ للمُؤمنينَ أيَّما تَشْريف؛ لأنّه ألحَقَ نوحًا بهِم، بجَعلِه ضِمْنَهم ومُنتظِمًا في صُفوفِهِم وجَماعتِهم[1].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 4/ 48، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

دَلالةُ الوَصْفِ بالعُبوديَّةِ:

العُبوديّة شَرَفٌ موصِلٌ للعَلياءِ ووصـفٌ رافـعٌ للأنبياءِ

الإخبارُ عن نوحٍ ﷺ بقولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ للدّلالةِ على استحقاقِه ما تَبوَّأ إيّاهُ مِنَ المَكارِمِ والمَناقِبِ؛ فقد نالَهَ بِرُتْبَةِ العُبوديّة، وفيه إشارةٌ إلى أنّ العبوديّةَ خيرُ وصفٍ ومَرْتبةٍ يحوزُها المخلوقُ، بدليل أنّ اللّهَ خصَّها ليَشهدَ بها لأكابِرِ أنبيائه[1]، وفيها إيماءٌ إلى أنّ معرفةَ عبوديّته للّه تعالى هي الَّتي قادتْه إلى هذه المنزِلَة العَليَّة والرُّتبةِ النَّبويّة، ودلّتْه على رَبِّ البَريَّة، فكان نبيًّا مُرسَلًا.

نُكتةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ:

عُنوانُ العُبوديّةِ تـابِـعٌ لـكـمـالِ البشريّةِ بالنُّبوّةِ

أُضيفَ لفظُ (عباد) إلى ضَميرِ الجَلالةِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ لتعريفِ نوحٍ ﷺ بالتّقريبِ ورَفْعِ الدَّرجةِ، فالإضافةُ تشريفٌ له وللعِبادِ الَّذي هو واحدٌ منهم، وكونُهُ مِنهُم تشريفٌ ثانٍ[2].

تَوجيهُ تَخْصيصِ وصْفِ العِبادِ بالمُؤمنينَ بالذِّكْرِ:

التّنْويهُ بشأنِ الإيمانِ والحَضُّ عليهِ استجابةً لإرشادِ القرآنِ

اقتضَرَ النَّظمُ الكريمُ على وصفِ العِبادِ بالمؤمنينَ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومُقتضَى إضافةِ العِبادِ إلى ضَميرِ العَظَمَة أنّهم مؤمنون، وذلكَ تنويهًا بشأنِ الإيمان؛ ليَزداد الَّذين آمنوا إيمانًا؛ ويُقلِعَ المشركون عن الشِّرك، وهذه نعمةٌ تاسعةٌ في جُملة المَذْكوراتِ[3]، ولِحَضِّ النّاسِ على طلَبِ كَمالِ الإيمانِ اقتداءً بأولئك الكُمَّل، واتِّباعًا لأمر اللّه تعالى.

مَوقِعُ الجُملةِ مِن السّابقِ في العَطفِ:

المُقابَلةُ بينَ غَرقِ الكافِرينَ ونجاةِ المُؤمنينَ نَقشٌ سَرمَديٌّ

جاءتْ جُملةُ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ عطفًا على جُملةِ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾، وهو عطفُ لقصّةٍ على قصّة؛ أيْ: (كانوا على فَريقَينِ؛ فريقٌ ناجٍ مِن قصّته كَيْتَ وكَيْتَ، وفريقٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134، 135.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 135.

هالك مِن قصّته الغَرَقُ والإبعاد). وهذا أوْلَى مِن العطفِ على جُملةِ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾؛ لأنّ النّاجين أعمُّ مِن ذُرّيّته، فإذا عطفنا المُغرَقينَ عليهِم، لَمْ تَتِمَّ مُقابلتُهم بجميع النّاجين؛ بل بصِنفٍ فيهم[1].

دلالةُ العَطفِ بحَرْفِ التّراخي:

تقديمُ بُشرَى إنجاءِ الباقي الذّاكِرِ على إغراقِ الفاني الغابِرِ

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ العطفَ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ دونَ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾؛ لإفادةِ التَّرتيبِ والتّراخي الرُّتَبيِّ بينَ فريقِ النّاجينَ وفريقِ المُغرَقين، ومعنى أنّها للتَّرتيب[2]؛ أي: التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، لا الزّمَنيِّ، والمُرادُ بأنّها للتّراخي؛ أي: التّراخي في الحالِ والبُعد، لا الوقتِ، ذلكَ أنّ نجاةَ هؤلاءِ مُتزامِنةٌ مع إغراق أولئك، فالمُرادُ من دُخولِ ﴿ثُمَّ﴾ هنا: الدّلالةُ على التّبايُنِ بينَ المَنزلتَين: مَنزلةِ النّاجينَ، ومنزلةِ المُغرَقينَ، وأخّرَ ذِكْرَ المُغرَقينَ في النّظْمِ تأخيرًا لهم عن مناقبِ نوحٍ والنّاجينَ معَه، لمّا كانوا متأخِّري الرُّتبة والمنزلةِ في الواقعِ أخّرَهُم في النّظْم؛ تنبيهًا على أنّهم أوْلَى بالتّأخير معنًى ولفظًا، فحقُّهم الدَّرَك، ومكانُهم الذَّيْل؛ فقدَّم البُشرى في إنجاءِ نوحٍ عليه السلام ومَن معَه، على بُشرى إغراقِ الظّالمين، وذلك لمُراعاةِ الاعتبارِ، والتّنبيهِ على الباقي الذّاكِر دونَ الفاني الغابِر، ففيهِ دَلالةٌ على أنّ القرآنَ يُراعي المَقاصِدَ في ترتيبِ المَشاهِد.

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾:

المُعارِضُ للحَقِّ مُتأخِّرٌ عنهُ غارِقٌ في الظُّلُماتِ

استَعملَ النّظْمُ الكريمُ مُفرَدةَ الآخَرينَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ وهُم الكفّارُ الّذين أغرقَهم اللّهُ تعالى بعدَ طولِ دعوةٍ وإنذارٍ تنبيهًا على تخلُّفِهِم وتأخُّرهم في المكانةِ والمكانِ عن

(1) صافي، الجَدْول: 12/ 67.
(2) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 3/ 239.

أقرانهم من المُؤمنين، و﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ جمعُ (آخَر)، وهو أحدُ الشّيئَيْنِ، وهو اسمٌ على (أفعَل)، وهو بمعنى (غير) كقولِك: رجُل آخَرُ، وثَوب آخَرُ، إلّا أنَّ فيه معنى الصّفةِ، فأصلُهُ (أفْعَلُ) مِن التأخّر[1]، فمقصودُ اللفظِ الإشعارُ بحقارةِ الآخَرينَ في كلِّ زمانٍ، وأنّ مَن عارَضَ دعوةَ الحقِّ فهو مُتأخِّر عن رُكوبِ الحَقِّ، غارِقٌ في بحرِ الظُّلُمات.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 135، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»